الفصل العاشر
دبلوماسية الطب

obeikandl.com

خادم الحرمين مع التوأم البولندي أثناء زيارته لبولندا

obeikandl.com

دبلوماسية الطب

نتناول في هذا الفصل ثلاثة جوانب مهمة أولها دور الطب في رأب أو دعم العلاقات السياسية والدبلوماسية بين بلدان العالم، ثم نتحدث ثانياً عن تجربة فصل التوأم السيامي البولندي ((أولغا وداريا) كأنموذج في فتح آفاق جديدة للتعاون بين المملكة العربية السعودية وبولندا، وفي الجانب الثالث نتطرق إلى بعض ملامح استغلال ظاهرة التوائم السيامية سياسياً واجتماعياً.

أولاً: تأثير لطب في العلاقات الدولية

الدبلوماسية ـ كما يعرفها الساسة والمتخصصون من أهلها ـ هي: المهارة في إدارة العلاقات الدولية، أي أنها تعني فن كسب الدول أو تجميل الصورة بين دولة وأخرى عبر التفاوض والحوار، أو تكريس الجهود والقدرات والمهارات والذكاء لاستمالة دولة ما وكسب صداقتها ومن ثم التعويل على تطوير العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بينهما بما يحقق منفعة لكليهما.

ولها بالطبع تعريفات أخرى كثيرة لا تعنينا كثيراً في هذا الكتاب، ولكن ما يعنينا هنا هو أن الدبلوماسية لم تعد قاصرة على القنوات الرسمية المتمثلة في وزارات الخارجية وسفاراتها وممثلياتها في الخارج، بل ظهرت نوافذ وجسور أخرى كثيرة غير رسمية ذات تأثير قوي ومباشر على العلاقات بين الدول حظيت باعتبار واهتمام لدى الدوائر المعنية بالعمل الدبلوماسي؛ لأن هذا التأثير قد يكون إيجابياً، أو ربما تكون له انعكاسات سالبة إن لم تكن ضارة!! ومن ذلك وسائل الإعلام المختلفة والأنشطة والبرامج الثقافية والرياضية والفنون على اختلافها والدبلوماسية الشعبية والشركات التجارية ورجال الأعمال والمستثمرون وما إلى ذلك. ويمكن أن تدخل العلاقات الأكاديمية والعلمية والبحثية بين الجامعات ومراكز الأبحاث وغيرها في هذه الدائرة لتكون لها تأثيراتها في العلاقات الدولية.

ولا شك أن العلاقات الطبية والتعاون الصحي والطبي المستمر بين دولة وأخرى؛ يمكن أن يكون مؤثراً جداً في مجال دعم النشاط الدبلوماسي، ويفتح آفاقاً سياسية جديدة بين الدول ويدعمها ويعززها، ويمهد الطريق لتعاون اقتصادي وتجاري وثقافي بينها وإن كانت تفصلها عن بعضها اختلافات ثقافية أو مذهبية أو عرقية أو جغرافية.

والمتابع للدبلوماسية الأمريكية ـ باعتبارها من أكبر وأنشط الدبلوماسيات في العالم وأكثرها تنوعاً ـ قد يلحظ أنها استخدمت ومازالت: (دبلوماسية الصحة) مع جيرانها من دول الكاريبي في أمريكا اللاتينية تحت شعار: (رعاية صحية أوفر للمزارعين وصغار الحرفيين من سكان الأحياء الفقيرة والأرياف)، وربما كانت لها أهداف ومصالح سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، أو حتى أمنية تحت مظلة هذا البرنامج الصحي.

ربما يطرح أحدكم سؤالاً حائراً عن علاقة التوائم السياسية بالنشاط الدبلوماسي، وما لهذا الكتاب المتخصص وللدبلوماسية؟ وهو سؤال مشروع بالطبع، ولكن كي نُزيل هذا اللبس أو هذه الحيرة نقول إن الطب ـ خاصة في الجانب الجراحي ـ اصبح يشكل جسراً رابطاً ومتيناً بين الدول، ولا نسوق ذلك لمجرد تسويق الطب سياسياً أو دبلوماسياً، وإنما من واقع التجربة الطويلة في ظل هذه المهنة، فقد سلَّط لنا هذا الواقع أضواء كثيفة على الوظيفة الدبلوماسية للطب، وكشف لنا أن جراحة واحدة يمكن أن تدفع العلاقة بين دولتين إلى أعلى

خادم الحرمين الشريفين يستلم وسام البسمة من أطفال بولندا

المستويات وإن كانت هذه العلاقات معدومة أو باردة أو فاترة أو مشوبة بمفاهيم وتصورات خاطئة أو ملتبسة، وقد يتحقق هذا التطور بصورة تعجز عنها الدبلوماسية الرسمية. لم يكن دور الطب في المجال السياسي أو الدبلوماسي غائبًا كليًّا؛ ولكنه كان محدودًا وربما مُغيباً بسبب عدم الاكتراث أو الاهتمام، أو حتى لغياب التصور الكامل لمثل هذا الدور من جانب الدبلوماسيين والأطباء أنفسهم.

ولا شك أن العواطف الإنسانية، والإحساس بالآخرين ومحاولة مساعدتهم في التغلب على الشعور بالعجز إزاء أوضاعهم الاقتصادية المتواضعة، وعلى تجاوز حيرتهم ومعاناتهم الصحية بمعزل عن دياناتهم واعتقاداتهم وسحناتهم ولغاتهم وألوانهم؛ علاوة على النظرة الحصيفة والثاقبة بعيدة الغور، ثم القدرة على قراءة الواقع السياسي الدولي واستشراف آفاقه المستقبلية؛ كل ذلك يجعلنا نبيّن بوضوح كاف دور الطب في بناء جسور دبلوماسية بين دول لم تكن معنية ببعضها، فجمهورية بولندا - على سبيل المثال - كانت علاقاتها مع المملكة العربية السعودية محدودة وقاصرة على الأطر والقنوات الرسمية؛ بل كانت أسيرة لطروحات الإعلام الغربي ورسائله الإعلامية المشحونة بالترهات والافتراءات والافتراضات الخاطئة حول الجزيرة العربية عمومًا والمملكة خصوصًا، فالشارع البولندي - كغيره من شعوب أوروبا - يجهل كل شيء عن جزيرة العرب ولا يرى فيها إلا البداوة والصحراء الغنية بالنفط التي أضحت تفرّخ الإرهاب والعنف والفوضى في العالم!! ثم جاءت جراحة التوأم السيامي البولندي في المملكة العربية السعودية لتحدث انقلاباً كبيراً في هذه المفاهيم المغلوطة، ولتُزيل هذه التصورات الواهمة إلى الدرجة التي تحركت فيها الأوساط الإعلامية البولندية بدوافع ذاتية محضة لتصحيح هذه الصورة من خلال استقصاء المعلومات عن المملكة وموقعها الريادي في العالم العربي والإسلامي سياسياً وثقافياً واقتصادياً وتجارياً.

ولم يتوقف الأمر على الرأي العام البولندي؛ بل تحركت الدوائر الرسمية في الدولة على مستوى رئاسة الوزارة لإعادة النظر في العلاقات مع المملكة، ونشطت دبلوماسيتها في هذا المجال، فكان أن استقبلت الرياض وزير الخارجية البولندي وهو يحمل خططًا متكاملة لمشروعات اقتصادية وتجارية بين البلدين، وبرامج للتبادل الثقافي والفني، وأخرى لتبادل المعلومات والخبرات والتجارب، إضافة إلى استحداث نوافذ وجسور بين جامعات البلدين مقترنة ببرامج للأساتذة الزائرين والابتعاث وغيرها من البرامج التي يمكن تطويرها لتفعيل هذا التعاون في مختلف المجالات العلمية والأكاديمية والبحثية.

وتوجت زيارة وزير الخارجية البولندي إلى الرياض بدعوة إلى خادم الحرمين الشريفين من الرئيس البولندي لزيارة بلادهم والوقوف على تاريخها الحضاري وتجربتها في المجالات الصناعية والثقافية والاجتماعية، وشملتني الدعوة باعتباري رئيس فريق الجراحين الذي تولى عملية فصل التوأم البولندي، ولعلي أرى في هذه الدعوة تكريمًا للطب الذي فتح آفاقًا جديدة بين دولة أوروبية وأخرى خليجية ربما كانت علاقاتهما لا تتجاوز رسميات وبروتوكولات العمل الدبلوماسي.

وهكذا يدخل الطب طرفًا فاعلاً في تنشيط العلاقات الدبلوماسية، ويؤسس - من خلال جراحاته ومساعداته الدوائية والعلاجية - أطرًا للتعاون تمامًا مثل أي برنامج من برامج القنصليات والبعثات والسفارات، وهو بهذا التأثير يشكل حلقة داعمة ومؤثر في علاقات الدول يمكن توسيع مظلتها والاستفادة منها بصورة أكبر وأشمل.

توقيع ثلاث اتفاقيات مع جامعات بولندا

وفي هذا العالم المتداخل الذي تطوّقه تداعيات العولمة وتأثيراتها القوية المحكمة؛ نأمل أن يكسر الطب العربي والإسلامي - على اختلاف تخصصاته - مفهوم المحلية ويحلق إلى آفاق أرحب منطلقًا من عواطف ومشاعر إنسانية مستمدة من روح الدين الإسلامي وتعاليمه باعتباره رسالة للعالم أجمع، وأن يُثبت للبشرية أن مسيرة المعرفة في الدول الإسلامية لم تعد كسيحة أو وئيدة، أو ممعنة في بدائيتها ومحليتها؛ بل أضحت تشكل تجارب علمية ناضجة يمكنها الإسهام بقوة في دفع معدلات النمو والتطور داخل المنظومة الإنسانية، وأنها قادرة على إحداث التقارب بين الشعوب وتذويب الخلافات بينها، وعلى تصحيح المفاهيم المقلوبة، وفتح مجالات للتعاون كانت مغلقة تمامًا.

وقد استطاعت تجاربنا السعودية القليلة في الجراحات السيامية أن تنقل «دبلوماسية الطب» إلى مصاف الدبلوماسيات الفاعلة والمؤثرة، وقد شكل لنا ذلك حافزًا لمزيد من الأداء والتواصل مع شعوب العالم؛ لأن الجراحة الواحدة لم يعد تأثيرها قاصرًا على ذوي التوائم؛ بل امتد إلى دولهم التي رأت في هذه المبادرات الإنسانية مفتاحًا للتعاون بينها وبين المملكة في ساحات الاقتصاد والتجارة والثقافة والصناعة وما إلى ذلك.. ولنا أن نتصور مبلغ التأثير الذي أحدثته جراحة التوأم البولندي كما أشرنا، والتوأم الفلبيني والكاميروني في رفع درجة التعاون وتوسيع قاعدته وأطره.

الطب قيمة إنسانية رفيعة يمكن للسلك الدبلوماسي - في أي دولة من الدول - استثمار خبراته وتجاربه سياسياً ودبلوماسياً في دعم أطر التعاون والتواصل بين الدول، ولقد لاحظنا أن بعض الدول عمدت إلى تسييسه دعمًا لمصالحها ونشرًا لنماذجها الثقافية والحضارية، ولعل دول قارتي أفريقيا وأمريكا اللاتينية وبعض دول العالم الأخرى الفقيرة هي أكثر الدول التي استفادت من العون الطبي الذي يدخل إليها في شكل مساعدات إنسانية عينية مباشرة عبر عدد من المنظمات الإنسانية العاملة في هذا المجال كأطباء بلا حدود وغيرها.

ثانيًا: (أولغا وداريا) جسر سياسي ودبلوماسي

لبى خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز دعوة القيادة البولندية في شهر جمادى الآخرة المنصرم وتحديدًا في الفترة من ١٠ - ١٢ / ٦ / ١٤٢٨هـ، واصطحب معه - حفظه الله - في هذه الزيارة وفدًا رفيعًا يمثل مؤسسات وقطاعات اقتصادية وتجارية وأكاديمية وأمنية.. وكانت فتحًا وتتويجًا لعلاقات ديبلوماسية أوسع وأرحب أثمرتها عملية فصل التوأم البولندي داريا وأولغا في مدينة الملك عبد العزيز الطبية بالحرس الوطني بالرياض، ونستطيع القول إن الزيارة حظيت بأهمية تاريخية وسياسية باعتبارها أول زيارة لملك سعودي لبولندا، وشكلت نواة وقاعدة صلبة لعلاقات واسعة ومتينة بين البلدين سياسياً ودبلوماسياً وتجارياً وثقافياً قد يمتد أثرها وتفاعلاتها إلى العلاقات العربية والبولندية عمومًا.

ورغم أن العلاقات السعودية البولندية بدأت مع بداية نشأة المملكة العربية السعودية؛ بل كانت بولندا الدولة الثامنة في ترتيب قائمة الدول التي اعترفت رسمياً عام ١٩٢٩م بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حاكماً على الحجاز ونجد وملحقاتها؛ إلا أن حيثيات دعوة خادم الحرمين الشريفين إلى زيارة بولندا قد انبنت على موقفه الإنساني النبيل حين أمر - حفظه الله - بفصل التوأم السيامي البولندي.

تقدير من أطفال بولندا

مع التوأم البولندي والقنصل السعودي

أحدثت الحرب العالمية الثانية وهنًا وضعفًا في العلاقة بين البلدين؛ بل تسبَّبت في تمزيقها وتفتيت عراها إلى أن أعيد ترميمها خلال العقد الأخير من القرن الماضي بعد استئناف الاتصالات التي تمخضت في تبادل دبلوماسي عام ١٩٩٥م، وظلت علاقاتهما وليدة وفاترة إلى أن جاءت هذه الزيارة الكريمة لتعيد بناء جسور الاتصال بين البلدين على أسس وقواعد راسخة. ولتشكل - كما وصفها سفير بولندا لدى المملكة - نقطة تحول في العلاقات السعودية البولندية باعتبارها حدثًا مهمًا في تاريخ العلاقات الثنائية بين البلدين يلقي الضوء على منظور استراتيجي جديد فيما يتعلق بتعاملاتهما على مختلف المستويات والمجالات، وتعزز العلاقات بين الاتحاد الأوربي ودول الخليج العربية، وتفتح آفاقًا جديدة للتعاون بين الكيانين.. وقال أيضاً إننا نعتبر عملية فصل التوأم السيامي البولندي التي أجريت في مدينة الملك عبد العزيز الطبية للحرس الوطني بالرياض عاصمة المملكة العربية السعودية علامة كبيرة في العلاقات السعودية البولندية، وأدخلت خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود إلى قلوب البولنديين كافة، وهو ليس شخصية سياسية فحسب؛ بل زعيم عربي بارز وشخصية إنسانية عالمية وصاحب قلب كبير يسع حب الجميع.

لم يكتسب برنامج الزيارة ملمحًا رسميًا فقط؛ بل كان الجانب الإنساني حاضرًا فيه بكثافة، وأحيط خادم الحرمين والوفد المرافق له بحميمية واضحة تمثلت في الزخم الشعبي، وفي تداعي مشاعر الحب والتكريم لدى جميع قطاعات وشرائح الشارع البولندي الذي يحتفظ في ذاكرته بعملية فصل التوأم السيامي في مدينة الملك عبد العزيز الطبية للحرس الوطني بالرياض في يناير عام ٢٠٠٥م، وكأنما كان هذا التدفق الوجداني تعبيراً جماعياً عن الشكر والعرفان والامتنان والمكانة الخاصة للقيادة السعودية.. وأتيحت للتوأم (أولغا وداريا) فرصة اللقاء والسلام على خادم الحرمين الشريفين للتعبير عن شكرهما لتلك اللفتة الإنسانية العظيمة والرعاية الكريمة التي أحاطهما بها منذ أن وصلا إلى الرياض حتى مغادرتها.

وتجسَّدت أعمق صور التعبير والوفاء في احتفاء العاصمة وارسو بتقليد خادم الحرمين (وسام البسمة)، وهو وسام دولي إنساني رفيع يُمنح لكل من قدَّم خدمات جليلة وغير مسبوقة للطفل. وفي هذا السياق ذكرت بعض وسائل الإعلام البولندية أن اللمسات الإنسانية للملك عبد الله جعلت منه رائدًا في عملية التآخي بين الشعوب..

وفي هذا المنحى قال - حفظه الله - إن بسمات التوأم البولندي السيامي عززت إحساسي بأن المسؤولية الأساسية هي بناء مستقبل من الأمن والسلام ينعم فيه الأطفال بالسعادة دون خوف أو رعب.. وأكد أن المملكة تسعى دائماً بكل إمكاناتها لتحقيق التعاون والتقارب بين الشعوب، وتأمل أن يكون لبولندا بصفتها عضوًا فاعلاً في الاتحاد الأوروبي صوتاً قوياً لنصرة الحق والعدل في العالم، ونوَّه بالبعد الإنساني للعلاقات بين البلدين ممثلاً في عملية فصل التوأمين السياميين.

وقادت الزيارة إلى توقيع مذكرات تفاهم واتفاقيات تجارية واقتصادية وصحية وعلمية وتعليمية وتقنية وثقافية ورياضية، وكذلك مجالات التفاهم الثنائي والازدواج الضريبي ومكافحة الجريمة المنظمة وغيرها، ومذكرة تفاهم بين جامعة الملك سعود بن عبد العزيز للعلوم الصحية وكلية الطب بجامعة وارسو والمركز الدولي للنطق والسمع.. وتُوِّجت جميعها بموافقة سامية على إنشاء مركز للدراسات العربية والإسلامية في جامعة وارسو التي تعد من أعرق الجامعات البولندية والأوروبية.

تعون مع منظمة اليونيسكو

السياسة السياسية

ثالثًا: حافلتان سياميتان في حلبة السياسة

دخلت ظاهرة التوائم السيامية إلى حلبة التوظيف السياسي والاجتماعي، غير أن الظاهرة هذه المرة صناعية وليست طبيعية، وذلك بعد أن أضحت المعايير الإنسانية في عصرنا هذا من العناصر ذات الأهمية القصوى في استدرار مشاعر الناس وكسب عواطفهم، وما كان ذلك إلا حين أمعن الإنسان في امتهان حقوق غيره، وأظهر درجة عالية من الصلف والجبروت أوصلته إليها مبالغته في الإعداد للقوه وإظهارها واستعراضها، كما أن الابتعاد عن حمى الله وشرائعه سببٌ في الاعتماد على القوة وتوظيفها لتحقيق السيادة على الآخر.. ومن ثم فليس غريبًا أن يسود في عصرنا هذا منطق البقاء للأقوى بدلاً من الأصلح.. ونتيجة لهذا نرى حقوق الإنسان تتسابق وتتنافس في مضمار السياسة، واستُغلت شعاراتها في خدمة المصالح السياسية والاقتصادية، وأضحى منتهكوها هم أنفسهم رافعي شعاراتها ودعاة تطبيقها..

ولما كانت التوائم السيامية مدخلاً للتعاطف وتحريك المشاعر، فقد استغلها بعض الدهاة لتسليط الضوء على مشكلات بعينها اجتماعية كانت أو إنسانية.. وفي هذا الشأن ابتكر أحد الأمريكان ـ كما ذكرت بعض وسائل الإعلام ـ حيلة ميكانيكية تمثلت في صناعة حافلة سيامية لاستقطاب دعم مرشحي الرئاسة في بلده ليساهموا في رفع معدلات الاستثمار في الأسرة والتجمعات السكانية، إنها حيلة دعائية بارعة للفت الانتباه ودفع الناس في اتجاه معيَّن يتعلق بقضية أمريكية بحتة.. استهدف المذكور حشد تأييد مرشحي الرئاسة في الولايات المتحدة لزيادة الاستثمار في الأسرة والتجمعات السكنية، عن طريق تحويل جزء من مخصصات وزارة الدفاع «البنتاغون» واستثمارها في مجال مفيد يتعلق بدعم الأسرة.

الحافلة عبرة عن توأم سيامي صناعي ملتصق التصاقًا كاملاً في عموده الفقري أي على امتداد منطقة الظهر، مع وجود اشتراك في أنسجة المخ (الماكينة) والصدر (مقعد السائق) والبطن والحوض (مقاعد الركاب)، والأطراف الجانبية (الأبواب والمخارج) وتظهر إحدى الحافلتين وكأنها مستلقية على ظهرها فوق توأمتها وأطرافها السفلية مستقلة في الاتجاه إلى أعلى..

لا يمكن بالطبع إجراء جراحة لفصلهما لأنهما ليستا طبيعيتين، ويصعب ذلك ميكانيكياً إلا بالتضحية بإحداهما على حساب الأخرى. وكما ذكرت المصادر التي نشرت هذا الخبر؛ فإن الميكانيكي صاحب الفكرة أراد المشاركة في الدعوات التي تطالب مرشحي الرئاسة بتقليص ميزانية وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) وتحويل جزء من مخصصاتها إلى دعم بنية الأسرة الأمريكية وتعزيزها مما يساهم ـ وفق تصوره ـ بصورة أساسية في تقوية نسيج المجتمع الأمريكي وصيانته من عوامل الخلخلة والتفكك.. وعن طريق هذه الحيلة تمكَّن من استغلال التأثيرات الإنسانية لظاهرة طبيعية بتوأم مصطنع ليكسب تأييدًا وعطفًا لما أراد الدعاية والترويج له.. ويمكنه بعد نجاح هذا الإعلان الاجتماعي) إجراء جراحة ميكانيكية لفصل حافلته السيامية.

طافت الحافلة السيامية عدة ولايات أمريكية، ولفتت انتباه الناس لغرابتها؛ ولكنها استطاعت تذكيرهم بالدوافع والأهداف الإنسانية التي أسهمت في تحريكهم ودفعهم إلى التعاطف مع القضية التي رفع صاحبها شعارها.. وهكذا يظهر التأثير الاجتماعي والإنساني للتوائم السيامية ـ طبيعية كانت أو صناعية ـ في شحن المشاعر وتوظيفها لمصالح سياسية أو أجتماعية.

حفل استلام جائزة فيلكس نيابة عن خادم الحرمين الملك عبدالله بن عبدالعزيز في بولندا